التَّصاعد الدَّلاليّ في كلام الإمام السّجاد عليه السلام وانعكاسه على متطلبات الواقع "أدعيّة الأيام أنموذجًا"

المدرس الدكتور
عباس اسماعيل سيلان الغراوي
جامعة ميسان ـ كلية التربية الأساسية
abbasabbas19812015@gmail.com

المقدمة:

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى﴾[1].

وبعد..

كلما تقدّم الإنسان في ميادين الحياة وجدَ نفسه أمام مطبّات أو حواجز تمنعه من المواصلة، وربما كان هذا العصر أشدّ العصور وأعقدها بسبب كثرة المعرقلات فيه من جهة ولغيبة إمامه (روحي له الفداء) من جهة أخرى، لكن هذا لا يعني التسليم والتهاون، بل ثمّة الكثير من الوسائل التي يمكنها أنْ تقف شاخصةً لأجل التشذيب وتصحيح الخطى، وخيرُ ما يتجلّى من هذه الوسائل بعد القرآن الكريم هو سنَّتُهم عليهم السلام؛ ففيها ما تشتهي القُلوب، ويصلحُ العُصور، وممّا يلقانا منها تحديدًا السُّنّة السّجّاديّة التي هي امتداد للسُّنّة المُحمديّة، ولقد كانت ولا تزال دُستوراً يمكِنُ الاعتماد عليه في كل عصر...، فقد وظّفها الإمام السجاد في انتشال المجتمع آنذاك من الحضيض، وهي آهلةٌ لأنْ تعيد الكرّة معنا، ولا سيما ونحن اليوم في زاوية منسيّة يطلقون عليها العالم الثالث. واقتصرنا من كنز هذه السُّنَّة على أدعية الأيام لا لضيق المقام، وإنّما لأنّ قليلَ كلامِهم ينهض بدراسات كثيرة.

وقد لاحظ الباحث ظاهرة موجودة في هذه الأدعيّة المباركة، وهذه الظاهرة هي التّصاعد الدلاليّ بعد أنْ لَحَظ افتقاد الدّراسات جميعًا لهذه الظاهرة مع أنّ فيها ما يتلاءم وطبيعة المجتمع لأجل النهوض، فكان العنوان: (التَّصاعد الدَّلاليّ في كلام الإمام السّجاد عليه السلام وانعكاسه على متطلبات الواقع ـ أدعيّة الأيام أنموذجًا ـ)..

وقد قسِّم البحث على تمهيد ومبحثين، وتخصص التمهيد بدعاء الإمام وسبب الدّراسة؛

ليبيِّن الظّروف التي جعلت الدعاء هو الوسيلة، وكيف أنّه ساند في إنهاض المجتمع مع بيان مكانة الدراسة في انتهاج كلام الإمام محلًا للدراسة، فكان على محورين: الأول الدعاء وعصر الإمام، والثاني: الدّاعي إلى الدراسة..

أما المبحث الأول فكان في بيان مفهوم التصاعد والكشف عنه من القرآن الكريم وبيان ما يشترط فيه...، وكان المبحث الثاني في وسائل التّصاعد. وهو في كل ذلك يُدبِّج البحث بالأمثلة السّجاديّة، ويُعرب عن أثر التّصاعد فيها والنُّهوض بالمُجتمع... وأخيرًا انتهى بخاتمة بيّنت أبرز نتائج البحث.

وما يسعني بعد ذا إلا القول: إنّ في كلامهم عضة وعبرة، فأرجو أنْ يكون في البحث فيه سبيل نحو الجنة وثبات على الطريق الصحيح...، ونقول صاغرين متذلّلين: ربنا اجعل هذا العمل خطوة في سبيل الوصول إلى طريق الذين ﴿آخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[٢].

التمهيد: دعاء الإمام وسبب الدراسة:

لا يمكن معرفة الأسباب التي أدّت إلى ترجح صيرورة الدعاء وسيلة أُولى في نهج الإمام إلا بمعرفة العصر الذي كان فيه. ذلك العصر الذي جعل التقيّة أمرًا محتّمًا على الإمام السجاد، فلقد كان الظلم والاضطهاد على أوجّه؛ فمن ظلم يزيد إلى بطش ابن زياد إلى الجور الطائش من الأمويين ولا ننسى الفتن الكثيرة التي نخرت بفقار العصر على النحو من فتنة ابن الزبير، مع انحراف أخلاقيّ واجتماعيّ، وكل هذه والإمام مراقب، فماذا عليه أن يفعل؟

هذا ما سيتضح في المحورين:

المحوَرُ الأوّل

الدّعاء وعصر الإمام

اتخذ أهل البيت عليهم السلام مناهجهم الإرشاديّة بما يتناسب والعصر الذي هم فيه، ومنْ هنا نجد تباين مناهجهم بسبب ظروفهم، وإنْ كان الهدف واحدًا، ونجد عصر الإمام السجّاد عصرًا مُفحمًا بويلات الأمويّين وتخاذُل الناس، مع ابتعاد واسع عن الخط الإسلاميّ القويم، و((لقد كانت الظروف السياسيّة في زمن الإمام زين العابدين عليه السلام محكومة بالكبت والإرهاب، وكان النّظام الأمويّ آنذاك متشدّدًا غاية التشدّد مع أهل البيت عليهم السلام وشيعتهم

حتى أنّهم فرضوا على الإمام ـ في فترة ـ الإقامةَ الجبريّة...، ولكنّه لم يقعد عن الجهاد...، فاتخذ من الدعاء والبكاء وسيلة لخدمة الإسلام...، وكانت أدعية الإمام زين العابدين عليه السلام بالإضافة إلى ما فيها من جنبة المناجاة مع الخالق والتضرّع إليه مدرسة تحوي المعارف والعقائد الإسلامية وفلسفة الحياة والفضائل الأخلاقيّة وما إلى ذلك من المواضيع التي حاول الأمويّون بثّ ما يضادها في المجتمع الإسلاميّ))[٣].

وبما أنّ الدعاء: ((هو الوسيلة بين العبد وخالقه واتصال من عالم الملك بعالم الملكوت))[٤]، هذا يعني أن التماسه يجنب الإنسان الوقوع في الزلل؛ لأنّ من تعلق بخالقه أمِن الوقوع، ولاسيّما أنّ ((الدّعوات الصادرة عن المعصومين عليهم السلام مشتملة على أعظم المعارف الربوبيّة التي حرص الأئمة عليهم السلام على بيانها بأسهل بيان))[٥]؛ لذا كانت ناجعة في هداية المجتمع وبنائه، بل تكون ((من أهم الأساليب التربويّة والوسائل التبليغيّة التي تغير المسلمين وتربطهم بالله تعالى وتركز الروحيّة في نفوسهم. ولقد اتبع الإمام السجاد عليه السلام أسلوب الدعاء فألّف بذلك الصحيفة السجاديّة، والتي سميت بـ (زبور آل محمد)، وقد ضمّت بين دفتيها أدعية مختلفة الأغراض... تطرقت إلى تربية المسلمين))[٦]، مصحّحة للسلوك المتدنّي الذي كان شائعًا في عصره، فـ((استطاع أنْ ينشر من خلال الدعاء جوًا روحيًا في المجتمع الإسلاميّ، يساهم في تثبيت الإنسان المسلم عندما تعصف به المغريات...، وهكذا نعرف أنّ الصحيفة السجاديّة تعبر عن عمل اجتماعيّ عظيم))[٧]، ومع أنّها كانت لعصرها إلا أنّ فائدتها الدينيّة والاجتماعيّة انبسطت لتشمل كل العصور ـ والنص البليغ هو الذي لا تقيده خارطة الزمن ـ وربّما لم يكشف الغبار عن فضل الدعاء حقيقة؛ لأنّ فضله عامّ حتى قال الإمام الصادق عليه السلام: ((عليك بالدّعاء فإنّه شفاء من كل داء))[٨]، وإطلاق شفائه يوحي بمكانته الفائقة في تحقيق الصّلاح على جميع المستويات بما فيها الاجتماعيّة والصحيّة والنفسيّة، ولكن كون الدعاء ((من حيث المظهر الداخليّ يقوم على عنصر وجدانيّ يتصاعد به الدّاعي إلى أوجّ الانفعالات الصادرة عنه))[٩]، فهذا قد يتراءى لأول وهلة أنّه عروج نحو السماء فقط مع ترك الدنيا جملة وتفصيلًا، بداعي الزهد، وإذا كان الإنسان المسلم بهذه الحالة، فإنّه لا يستطيع مجاراة الأوروبيّ في تعمير الأرض! والجواب عند السيد محمد باقر الصدر بقوله: ((يمكن أنْ تؤدي نظرة إنسان العالم الإسلاميّ إلى السماء قبل الأرض إلى موقف من هذه المواقف السلبيّة إذا فصلت الأرض عن السّماء، وأمّا إذا

ألبست الأرضُ إطارَ السّماء، وأعطي العمل مع الطبيعة صفة الواجب ومفهوم العبادة، فسوف تتحوّل تلك النظرة الغيبيّة لدى الإنسان المسلم إلى طاقة محرّكة وقوة دفع نحو المساهمة بأكبر قدر ممكن في رفع مستوى الحياة))[١٠]، وهو ما يسعى هذا البحث إلى إثبات شيء منه....

على أنّه ليس كل دعاء يؤدي هذه الوظيفة، فما كل من صنَعَ دعاءً كان باستطاعته أنْ يجعل الدعاء بتلك المنزلة الإرشاديّة، وإنّما هو أمر خاصّ بهم عليهم السلام، ومن هنا وجدنا التأكيد على متابعتهم في أدعيتهم، وحَثّ السيد عبد الأعلى السبزاوريّ قدس سره على أنْ يكون ((الدعاء بالمأثور عن المعصومين؛ لأنّه تكلّم مع الله (عز وجلّ) كما أنّ القران تكلّم الله مع العبد، فينبغي في الدعاء أنْ يكون مأثوراً ومستنداً إلى الشرع، قال تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ﴾ (فاطر - الآية ١٠)، وقال (عزّ وجل): ﴿وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُدُوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ﴾))[١١] (الحج/٢٤)، ومن هنا و في خضمّ تلك الظروف التي لا تهدأ عن العصف بالفرد والمجتمع بما قد يجرفه للهاوية، كانت الحاجة إلى أدعية أهل البيت ضرورة لا بُدّ منها، وما هذه الدراسة إلا خطوة في بيان تلك الضرورة، ويمكن كشف هذا الإجمال بالموضوع التالي.

المحور الثاني

الدّاعي إلى الدِّراسة

إنّ البحث في بيانه للتصاعد الدّلالي سيعتمد على نصّ متين، محاولة لإعطاء نتائج صحيحة، وهذا أفضل من الاعتماد على الجمل الافتراضيّة، فهي جمل مصطنعة مفترضة لا يمكنها أنْ تكون محلًا لمعرفة الحقيقة والكشف عن طرق التّواصل، وهذا الأمر قد أثبته الباحثون الغربيون، فهذا بوجراند يقول: ((لا يمكن للبحث أنْ ينبني ولا للنتائج العامّة أنْ تستنبط من الجمل الإيضاحية... فقط؛ إذ يصنعها الباحث من أجل دعم رأي بعينه، فالمجالات الأكثر إقناعًا للحصول على الشواهد هي النصوص المستعملة بالفعل))[١٢]، و((ليست الأمثلة التي يأتي بها اللسانيّون أمثلة في الواقع إلا إذا أخذت من نصوص أنتجت إنتاجًا عفويًا من لدن غير اللسانيين، ومع هذا نرى النّحو الذي يبحث في التراكيب غير الواقعية يبدو بناءً غريبًا من حيث هو علم))[١٣]، كونه اعتمد على جمل مصطنعة، ولو كان انطلاقًا من النصوص البليغة على النحو من نصوصهم عليهم السلام لاتّسم النحو ودرسه بطابع

الحياة والتأثير.

إنّ في كلامهم ما يطمع على الفوز بالنّتائج الصائبة ، كونهم أمراء الكلام، وعن أمير المؤمنين عليه السلام: ((إنّا لأُمَراءُ الكلام، وفينا تَنَشَّبتْ عُرُوقُه، وعلينا تهدَّلتْ غُصُونُهُ))[١٤]، وتهدّل الغصون يعني الغنى المعرفيّ بالأساليب والفنون بداعي التأثير، وإذا جئنا إلى كلام الإمام السّجّاد وجدناه يتناغم مع طبيعة الأنام، فلا يسير على خطّ واحد، وكأنّه القلب الّذي يتحرّك بانقباض وانبساط من أجل بثّ الحيويّة في جسم المجتمع، ولا سيّما في مجتمعه عليه السلام، بل في مجتمعنا أيضًا حيث معاناة الروح الإيمانية من ويلات الأمويّة المعاصرة وثقافة الانحلال.

إنّ المتأمّل في كلام الإمام يجد نفسه منسابةً مع امتداد النّصّ، فالقضية النّصيّة تبدأ بصورة تركيبية، وتنتقل لأخرى أبلغ منها؛ لتحقيق الإقناع حتّى تصل الذّروة في رياض الحقيقة، ويتدرج الذهن نحو الهدف المنشود، وهذا بأثره ينعكس على المجتمع الباحث عن النور....

ولعلّ هذا العمل ـ فيما أزعم ـ ذو فكرة جديدة كونه نظر إلى ما وراء الجملة، واعتمد الذّاكرة طويلة المدى، وفيه استجابة لعالم النّصّ كُلًّا، لا بالنّظر إلى الجملة نظرة جزئيّة، بل ((إلى جوار الجمل الأخرى السابقة واللاحقة))[١٥]؛ لـ ((أنّ بتر جملة ما من مجموعة التتابعات الجمليّة يؤدّي إلى غموض معناها الفعليّ))[١٦]، ومن جهة أخرى فلم أجد من تلمس تتابعية نمو النص من جهة التصاعد الدلاليّ..، وإن كانت هناك إشارات تومئ إلى ذلك. وعلى هذا يمكن تقسيم البحث على:

المبحث الأول

التصاعد الدلاليّ المفهوم والشروط

توطئة:

الإنسان بطبيعته ميّال للتقدم، ولعلّ هذه الصفة تعدت إلى أفعاله وأقواله[١٧]، فغدت ظاهرة التّصاعد التّدريجيّ ظاهرة عامّة، ـ مثلًا ـ قارئ القرآن أو الخطيب أو الشاعر المنشد يبتدئ بطبقة واطئة، ثم يتحول إلى طبقة صوتية أعلى، وفي ذا تجنب للملل وانتقالة بذهن المتلقي من طبقة اعتيادية إلى طبقة فوقها، وهذا لأنّ النفس ميّالة لتقبّل الشّيء تدرّجًا، وكذا الأمر في الكلام البليغ على النّحو من أدعيتهم عليهم السلام، ففيها الصُّعود من مرقاة إلى مرقاة أعلى

منها ليستعطف العبدُ ربَّه، وليرأف الله بسماع ذلك العبد، ويتلطّف لتوسُّله، فمثلًا في دعاء الندبة المروي[١٨] عن الإمام الصادق عليه السلام بدأ النص ب-: ((اَلْحَمْدُ لله رَبِّ الْعالَمينَ، وصَلَّى اللهُ عَلى سَيِّدِنا مُحَمَّد نَبِيِّه وآلِه وسَلَّمَ تَسْليمًا))، ثم عاد إلى التحميد مع تغيير ملحوظ: ((اَللّـهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ عَلى ما جَرى بِهِ قَضاؤكَ في أَوْلِيائِكَ الَّذينَ اسْتَخْلَصْتَهُمْ لِنَفْسِكَ ودينِكَ))، والفرق يكون على النحو:

اَلْحَمْدُ لله...	اَللّـهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ
جملة أثبتت تعلق الحمد به تعالى وأسندت الحمد له تعالى بخطاب الغياب، أي خطاب غير مباشر	تقدم فيها الخبر (لك)، والتقديم لحصر الحمد به تعالى، وسبقت بالنّداء (اللّهم)،وفي النّداء إلحاح على استعطاف المعبود، وأسندت الحمد له تعالى بخطاب الحضور(١٩)، أي خطاب مباشر.

وبالتأمل يلحظ التغيُّر البنائيّ في إثبات الحمد لله تعالى بما يولّد ترقّيًا في الأسلوب وتحولًا إلى طبقة كلامية أخرى موثّقة بالمؤكدات لتدعو إلى تنشيط البناء النّصّي وزيادة الاستجابة له.

مفهوم التّصاعد الدّلالي:

التّصاعُد لغةً، منْ ((صَعِدَ صُعُودًا، أيْ: اَرْتقَى مَكانًا مُشَرِّفًا))[٢٠].

أمّا في الاصطلاح فلَمْ يَرِدْ عِنْدَ القُدَماءِ بهذا المُصْطلح، وإنّما جاءَ بمُصْطلح (الأبْلغ) و(التّرقّي) و(التّدريج في الرُّقِيّ) - على النّحو مما يأتي -، أو بالإشارةِ إليه من دونِ اَلْتماسِ مُصْطلحٍ مُحدَّدٍ.

ولعلّ أوّلَ من استعمله اَبنُ جنّيّ (ت٣٩٢هـ) في بيان التدرج في التعبير حين قال: ((وذلك أن يُشْبِه شيءٌ شيئًا من موضعٍ، فيُمْضَى حكمُهُ على حُكمِ الأوّلِ، ثُمَّ يُرَقَّى منه إلى غيرِه))[٢١].

وجاءَ عِنْدَ الجُرجانيِّ (ت٤٧١هـ) في أثناءِ تحليلِه للمُركَّباتِ المُتَتابِعةِ في ((قوله تعالى: ﴿وإذا تُتلى عليه آياتُنا ولّى مُستكبرًا كأن لّم يَسْمعْها كأنّ في أُذُنَيْه وقْرًا﴾... المقصودُ منَ التّشبيهِ بمَنْ (في أُذُنَيْه وقْر) هُوَ بعينِه المقصودُ منَ التّشْبيهِ بمَنْ (لمْ يسمعْ)، إلّا أنّ الثّانيَ أبلَغُ وآكدُ في الَّذي أُريدَ، وذلكَ أنّ المَعْنى في التّشْبيهين جَميعًا أنْ يَنْفيَ أنْ يَكونَ لتلاوةِ ما تُليَ عليه منَ الآيات فائدةٌ معَهُ، ويكونُ لها تأثيرٌ فيه، وأنْ يَجْعَلَ حالَهُ إذا تُليَتْ عليه كحالِه إذا لمْ تُتْلَ، ولا شُبْهةَ في أنّ التّشبيهَ بمَنْ في أذنيه وقْرٌ أبلغُ وآكدُ في جعلِه كذلكَ، منْ حيثُ كانَ مَنْ لا يَصِحُّ منهُ السَّمْعُ وإنْ أرادَ ذلكَ أبْعَدَ منْ أنْ يَكونَ لتلاوةِ ما يُتلى عليه فائدةٌ منَ الَّذي يَصِحُّ منهُ السَّمْعُ))[٢٢].

ورأى الزَّمخشريّ (ت٥٣٨هـ) أنّ التَّصاعُدَ يُمثِّلُ محوَرًا عامًّا في بناءِ النَّص، وورَدَ عنْدَهُ بمُصْطلحِ (التَّرَقّي)[٢٣]، بقولِه: ((والقياس التّرقّي منَ الأدْنى إلى الأعْلى كقولِهِمْ: فلانٌ عالِمٌ نحْريرٌ، وشُجَاعٌ باسِلٌ، وجَوادٌ فيّاضٌ))[٢٤]، فـ (نحْرير) أبلغُ من (عالِم)، و(باسِل) أشَدُّ من (شُجاع)، و(فيّاض) تُدلي بكَثرةِ العَطاءِ مُقارنةً بـ (جَواد).

وورد عنْد آبن الزملكاني (ت٦٥١هـ) بـ ((التَّدريج في الرُّقيّ))[٢٥].

وتأثر أبو حيّان (ت٧٤٥هـ) بالزّمخشريّ، فجاءَ عندَهُ مُصطلحُ (التَّرقّي) كثيراً[٢٦]، ففي قولِه تَعالى: ﴿يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ﴾ (المائدة: ٥٤) قالَ: ((لأنّ الخَوفَ أعظمُ منَ الجِهادِ، فكانَ ذلكَ ترقّيًا منَ الأدْنى إلى الأعْلى))[٢٧]، فهؤلاءِ المُؤمنونَ تَرَقَّوا في إيْمانِهِمْ منْ جهادٍ في سبيلِ الله، وهذه صفةٌ مُعظَّمةٌ ومُكرَّمةٌ بلا ريبٍ إلى صِفةٍ أبْرزَ منْها، وهِيَ أنّهُمْ لم يَعودوا يَخافُونَ أيّةَ لَومةٍ منْ لائِمٍ.

وفي الوَقْتِ المعاصِرِ نجدُ عندَ بعضِهِمْ ما يُعرَفُ بالتَّصاعُدِ البَلاغيّ، و((هُوَ أنْ تُرتِّبَ عدَدًا منَ الكلماتِ أو العباراتِ تَرْتيبًا تَصاعُديًّا منْ حيثُ المَعْنى بقَصْدِ زيادةِ التَّأثيرِ))[٢٨]، ويُسمَّى أيضًا بالتَّصاعُدِ القوليّ، و((فيهِ تَتابُعُ الجُملِ في تَسلْسُلٍ مُتَصاعِدٍ يَشُدُّ بعضُهُ برِقابِ بعضٍ))[٢٩]، وقد ((قدّمَ كلاوس تَصوُّرًا يَقومُ على مُراقَبةِ تَصاعُدِ العَلامةِ[٣٠] ضِمْنَ النَّصِّ))[٣١]، أي ((تصعيد المَعْنى والوُصُول بهِ إلى غايتِه، وهو الأمْرُ الَّذي يَقْتَرِبُ منَ المُبالغةِ، ومنْ أمثلتِه أنَّكَ عنْدَما تَمْدَحُ إنْسانًا بصفَةٍ فإنّها تَسْتَتْبِعُ صفةً أُخْرى))[٣٢]، وغالبًا ما تَكونُ هذهِ الصِّفةُ التَّاليةُ منْ بابِ تصعيدِ المَعْنى ليتجنّبَ المُبْدعُ الاسْتطرادَ المَعيبَ[٣٣].

وعلى هذا يَكونُ المُرادُ منَ التَّصاعُدِ: هُوَ التّصْعيدُ الدَّلاليّ في بناءِ الفكرةِ النَّصّيّةِ بذكرِ البليغِ فالأبْلغِ طَلَبًا للإقْناعِ ورَغْبةً في التَّأثيرِ، وهوَ في ذا يُسْهِمُ في إضْفاءِ الانسجامِ على النَّصِّ؛ لأنّ المتلقّيَ يَميلُ إلى النَّصِّ المُتَّسِمِ بالتّزايدِ في تقريرِ الأفكارِ أو بنائِها.

التصاعد الدّلاليّ في القرآن الكريم:

القرآن مصدر الحياة ومصدر الدّراسات، ومع تلك الإشارات الطّفيفة عن وجود التّصاعد الدّلالي في الكلام، يمكن إيجاد ما يقف مشرعًا ودافعًا على وجود هذه الظاهرة في الدّرس اللغويّ، ألا وهو القرآن الكريم وممّا فيه - مثلًا - في سورة يس؛ إذ ابتدأ الحديث

بإرسال (اثنين) من المرسلين، فلما أبَوا زاد العدد ﴿إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ﴾ (يس/١٤)، ومع أنّ خطابهم كان بصورة مؤكدة ﴿إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ﴾ لأنّ المرسل إليهم كانوا شديدي الجحود إلا أنّ جحودهم استمرّ، فجاء النصّ فيما بعد موثّقًا بزيادة لام التوكيد ﴿قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ﴾[٣٤] (يس/١٦)، وهذا التصاعد بتزايد المؤكدات تباعًا وصولًا للإدلاء بالحجة القاطعة، وكأنّ مرحلة النّمو ليست حكرًا على الكائنات، بل على ما يطرأ من الكائنات أيضًا.

((ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ * خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ قوله تعالى: ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ تأكيد لقوله ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ﴾ وقوله: ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ﴾ تأكيد ثان أبلغ من الأول، لأنّ من كان حاله إذا أنذر مثل حاله إذا لم ينذر كان في غاية الجهل، وكان مطبوعًا على قلبه لا محالة))[٣٥].

وكذا في سورة يوسف: ﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (يوسف/٥٣)، ففي الوقت الذي كشفت به زليخا عن خطأها ﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي﴾ عقّبت اعترافها بكلام بليغ من أجل تخفيف شدّة ذنبها ﴿ إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ ﴾، ففيه تأكيد بـ (إنّ) ومجيء الخبر من صيغ المبالغة[٣٦] الموكّدة باللام أيضًا: (لأَمَّارَةٌ)، مع العدول إلى الجملة الاسميّة التي توحي بالثبوت مقارنة بالفعليّة[٣٧]...

إنّ الاعتراف بالذنب يستوجب المحاسبة، فجاءت زليخا بما يقلّل من شدّة المحاسبة بأسلوب توكيديّ، لتتحوّل من شاهد على نفسها إلى محامٍ يصبو لخلاصها، وكأن المحاكمة:

وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي	جملة فعلية تحتمل التجدد، وهي خالية من المؤكدات، لأن التوكيد يعني زيادة التشنيع والتوبيخ لها...
إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ	جملة اسمية تفيد الثبوت، وقد تضمنت مؤكدات: إن، لام التوكيد، صيغة المبالغة...

ويمكن لحاظ مثل ذلك في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ (الحج /١)، وقوله (عزّ اسمه): ﴿يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ (لقمان/١٧)، وقوله سبحانه ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ

عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (التوبة /١٠٣)...

ونجد القرآن الكريم حين يذمّ الكافرين يسرد صفاتهم المذمومة تباعًا من السّيئة إلى السُّوأى، وذلك في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا * وَالَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَن يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا﴾ (النساء / ٣٧ ـ ٣٨)، فـ((لما وصفهم تعالى بتلك الأوصاف المذمومة كان فيه الترقي من وصف قبيح إلى أقبح منه، فبدأ أولًا بالبخل، ثم بالأمر به، ثم بكتمان فضل الله، ثم بالإنفاق رياء، ثم بالكفر بالله وباليوم الآخر))[٣٨].

وقد يكون التصاعد بالتحوّل في دلالة البنية، فمثلًا في قوله تعالى: ﴿وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ﴾ (البقرة/٢٥١)... فقد ذكر الملك أولًا ثم الحكمة ثانيًا ((من باب الترقي))[٣٩].

وقد يكون من الشريف إلى الأشرف على النحو من قوله تعالى: ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ...﴾ (آل عمران / ١٨٦)، إذ ((قدم الأموال على الأنفس على سبيل الترقي إلى الأشرف))[٤٠].

وقد اعتمد السيد الطباطبائي على التّصاعد الدّلاليّ بإعطاء الحكم التفسير الصحيح، ففي ((قوله تعالى: "و إنْ تجهر بالقول فإنّه يعلم السرّ و أخفى"... قوله: "و أخفى" أفعل التفضيل من (الخفاء) على ما يعطيه سياق الترقّي في الآية، و لا يُصغى إلى قول من قال: إن "أخفى" فعل ماضٍ فاعله ضمير راجع إليه تعالى، و المعنى: أنه يعلم السر وأخفى علمه. هذا. و في تنكير "أخفى" تأكيد للخفاء. و ذكر الجهر بالقول في الآية أولًا، ثم إثبات العلم بما هو أدقّ منه و هو السر، والترقي إلى أخفى يدلّ على أنّ المراد إثبات العلم بالجميع))[٤١].

ويلحظ أنّ السر والخفاء من سنخ واحد، وهو الاقتراب من عدم الظهور، وكذا إذا راجعنا التّصاعد فيما مضى، ففي ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ...﴾ كان لانتماء الأَمْوَالِ وَالأَنْفُسِ إلى جنس المملوك المحبوب..، وهذا يجعلنا نؤمن بأنّ التّصاعد الدّلالي الذي تمّ كان على مستوى القضية ذاتها، وإذا رجعنا إلى أولئك (المرسلون) في سورة يس نجد أنّه قد تصاعدت الدلالة لديهم على مستوى إثبات رسالتهم - ومن هنا نحتاج إلى تفصيل القول فيما يشترط بالتصاعد الدّلالي.

شروط التصاعد الدلاليّ:

يشترط بالتصاعد أن يكون بالقضية ذاتها والفكرة نفسها لا في أخرى، وكون النص مؤلفًا من مفاصل، فيمكن القول في المفصل ذاته، فمثلًا في النص الدعائيّ من يوم الأحد بعد أن بدأ بطبقة اعتياديّة تكاد تخلو من أسس التوكيد جاء النص بعدها مؤكدا موثقًا: ((وَإِيَاكَ أَسْتَرْشِدُ لما فيه الصَّلاحُ وَالإِصْلاحُ، وَبِكَ أَسْتَعِينُ فيما يَقْتَرِنُ بِهِ النَّجاحُ وَالإِنْجاحُ، وَإِيَّاكَ أَرْغَبُ فِي لِباسِ العافِيَةِ وَتَمامِها وَشُمُولِ السَّلامَةِ وَدَوامِها))، هذا النصّ تصاعدٌ دلاليّ لنصٍّ سابق له، والمؤكدات به واضحة[٤٢]، ولكن جاء بعده مباشرة ((وأَعُوذُ بِكَ يا رَبِّ مِنْ هَمَزاتِ الشَّياطِينِ، وَأَحْتَرِزُ بِسُلْطانِكَ مِنْ جَوْرِ السَّلاطِينِ))، وهنا عدل عن غرض التقديم، فلم يقل (بك أَعُوذُ)، وقد يكون هذا للتحوّل في المقطع النّصيّ، فالتّقديمُ حينَ كان في طلب أمور محبوبة مرغوبة، وهي أمور إيجابيّة من طلب الاسترشاد للصلاح والإصلاح والاستعانة على النجاح وإنجاح الآخرين، والرغبة في ارتداء لباس العافية والسلامة...، وهنا جاءت هذه القضايا المحبوبة الايجابية بأسلوب التقديم والتأخير، ولما تغيّر مضمون القضايا فكان في الأمور السيئة تغير الأسلوب ليؤذن بمساوئ ينبغي تجنبها من همزات الشياطين وجور السلاطين..

ويدل على ذلك انّه حين استمر في ذكر القضايا السلبيّة ترقّى ووثّق النّصّ بالنداء والتوكيد بـ (إن): ((اللّهُمَّ إِنِّي أَبْرَأُ إِلَيكَ فِي يَوْمِي هذا وَما بَعْدَهُ مِنَ الآحادِ مِنَ الشِّرْكِ وَالإِلْحادِ، وَأُخْلِصُ لَكَ دُعائِي تَعَرُّضًا لِلإِجابَةِ)). وكأن المسألة جرت على الصورة:

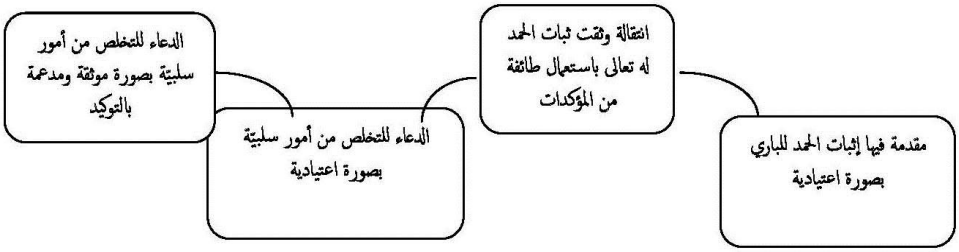

وفي قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾ (آل عمران/٩) التفت من حاضر إلى غائب، والمألوف العكس - كما سيأتي -، ولكن الحقيقة أنّ ((ظاهر العدول من ضمير الخطاب إلى الاسم الغائب يدلّ على الاستئناف، وأنّه من كلام الله تعالى لا من كلام الرّاسخين الدّاعين))[٤٣]. أي تحوّل النص، فلم يبق قائله واحدًا كي تكون

الفكرة تصاعديّة، أي لا بد أن يكون القائل هو نفسه.

زد على ذلك فإنّه يكون تصاعداً في النص المثبت، فإذا كان منفياً فينعكس الأمر، يقول السيد الطباطبائيّ قدس سره: ((في الإثبات إنّما هو من الأضعف إلى الأقوى كقولنا: فلان يقدر على حمل عشرة أمنان بل عشرين، وفلان يجود بالمئات بل بالألوف، وفي النفي بالعكس كما نقول: لا يقدر فلان على حمل عشرين ولا عشرة، ولا يجود بالألوف ولا بالمئات))[٤٤].

المبحث الثاني

وسائل التصاعد الدلاليّ

اللغة العربيّة تمتاز بغنى التراكيب، فتتنوع فيها الاستعمالات، وتتباين الدّلالات تبعًا لذلك، وينجرّ هذا على ظاهرة التّصاعد؛ إذ تتبيّن من جهة الوسائل المؤديّة له، فبعضها يكون على مستوى المفردة، وبعضها على مستوى الجملة وبعضها يتجاوز الجملة، و يمكن تلمّس هذه الوسائل بالآتي:

١ـ التحول من الغياب إلى الحاضر[٤٥]:

مرّ الحديث عن هذه الوسيلة التّصاعدية في شرح فقرة دعاء الندبة، ونجد في سورة الفاتحة بالتحميد بخطاب غير مباشر، ثم ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ (الفاتحة/٥)، وكذا، ((قوله تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾ (آل عمران/٩) أول السورة، وفي آخرها ﴿إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾[٤٦] (آل عمران/١٩٤)، وإذا جئنا إلى أدعية الأيّام نجدها ظاهرة عامة فيها، وعلى النحو:

دعاء اليوم	المقدمة	الانتقالة
دُعَاء يَوْمُ الأحد	بِسْمِ اللهِ الَّذِي لا أَرجو إِلاّ فَضْلَهُ، وَلا أَخْشى إِلاّ عَدْلَهُ، وَلا أَعْتَمِدُ إِلاّ قَوْلَهُ، وَلا أُمْسِكُ إِلاّ بِحَبْلِهِ.	بِكَ أَسْتَجِيرُ يا ذا العَفْوِ وَالرِّضْوانِ مِنْ الظُّلْمِ وَالعُدْوانِ، وَمِنْ غِيَرِ الزَّمانِ، وَتواتُرُ الأَحْزانِ، وَطوارِقِ الحَدَثان
دُعَاء يَوْمُ الاثنين	الحَمْدُ للهِ الَّذِي لَمْ يُشْهِدْ أَحَدًا حِينَ فَطَرَ السَّماواتِ وَالأَرْضَ، وَلا اتَّخَذَ مُعِينًا حِينَ بَرَأَ النَّسَماتِ. لَمْ يُشارَكْ فِي الإِلهِيَّةِ، وَلَمْ يُظاهَرْ فِي الوِحْدانِيَّةِ. كَلَّتِ الأَلْسُنُ عَنْ غايَةِ صِفَتِهِ...	فَلَكَ الحَمْدُ مُتَواتِرًا مُتَّسِقًا ومُتَوالِيًا مُسْتَوْسِقًا وَصَلَواتُهُ عَلى رَسُولِهِ أَبَدًا وَسَلامُهُ دائِمًا سَرْمَدًا.
دُعَاء يَوْمُ الثلاثاء	الحَمْدُ للهِ وَالحَمْدُ حَقُّهُ كَما يَسْتَحِقُّهُ حَمْدًا كَثِيرًا، وَأَعُوذُ بِهِ مِنْ شَرِّ نَفْسِي؛ إِنَّ النَّفْسَ لَأَمّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلاّ مارَحِمَ رَبِّي، وَأَعُوذُ بِهِ مِنْ شَرِّ الشَّيْطانِ الَّذِي يَزِيدُنِي ذَنْبًا إِلى ذَنْبِي، وَاحْتَرِزُ بِهِ مِنْ كُلِّ جَبّارٍ فاجِرٍ، وَسُلْطانٍ جائِرٍ، وَعَدُوٍ قاهِرٍ.	اللّهُمَّ اجْعَلْنِي مِنْ جُنْدِكَ فَإِنَّ جُنْدَكَ هُمُ الغالِبُونَ، وَاجْعَلْنِي مِنْ حِزْبِكَ فَإِنَّ حِزْبَكَ هُمُ المُفْلِحُونَ، وَاجْعَلْنِي مِنْ أَوْلِيائِكَ فَإِنَّ أَوْلِيائَكَ لاخَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاهُمْ يَحْزَنُون.

دُعَاء يَوْمُ الاربعاء	الحَمْدُ للهِ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ لِباسًا وَالنَّوْمَ سُباتًا، وَجَعَلَ النَّهارَ نُشُورًا	لَكَ الحَمْدُ أَنْ بَعَثْتَنِي مِنْ مَرْقَدِي وَلَوْ شِئْتَ جَعَلْتَهُ سَرْمَدًا، حَمْدًا دائِمًا لايَنْقَطِعُ أَبَدًا وَلايُحْصِي لَهُ الخَلائِقُ عَدَدًا.
دُعَاء يَوْمُ الخميس	الحَمْدُ للهِ الَّذِي أَذْهَبَ اللَّيْلَ مُظْلِما بِقُدْرَتِهِ، وَجاءَ بِالنَّهارِ مُبْصِرًا بِرَحْمَتِهِ، وَكَسانِي ضِيائَهُ وَأَنا فِي نِعْمَتِهِ.	اللَّهُمَّ فَكَما أَبْقَيْتَنِي لَهُ فَأَبْقِنِي لأَمْثالِهِ، وَصَلِّ عَلى النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ وَآلِهِ، وَلاتَفْجَعْنِي فِيهِ وَفِي غَيْرِهِ مِنَ اللَّيالِي وَالأَيّامِ بِارْتِكابِ المَحارِمِ وَاكْتِسابِ المَآثِمِ
دُعَاء يَوْمُ الجمعة	الحَمْدُ للهِ الأول قَبْلَ الإِنْشاءِ وَالإِحْياءِ وَالآخِرِ بَعْدَ فَناءِ الأَشْياءِ، العَلِيمِ الَّذِي لا يَنْسى مَنْ ذَكَرَهُ وَلا يَنْقُصُ مَنْ شَكَرَهُ وَلا يَخِيبُ مَنْ دَعاهُ وَلا يَقْطَعُ رَجاءَ مَنْ رَجاهُ.	اللَّهُمَّ إِنِّي أُشْهِدُكَ وَكَفى بِكَ شَهِيدًا، وَأُشْهِدُ جَمِيعَ مَلائِكَتِكَ وَسُكَّانَ سَماواتِكَ وَحَمَلَةَ عَرْشِكَ، وَمَنْ بَعَثْتَ مِنْ أَنْبِيائِكَ وَرُسُلِكَ، وَأَنْشَأْتَ مِنْ أَصْنافِ خَلْقِكَ، أَنِّي أَشْهَدُ أَنَّكَ أَنْتَ الله
دُعَاء يَوْمُ السبت	بِسْمِ اللهِ كَلِمَةِ المُعْتَصِمِينَ وَمَقالَةِ المُتَحَرِّزِينَ، وَأَعُوذُ بِالله تَعالى مِنْ جَوْرِ الجائِرِينَ، وَكَيْدِ الحاسِدِينَ وَبَغْيِ الظّالِمِينَ، وَأَحْمَدُهُ فَوْقَ حَمْدِ الحامِدِينَ.	اللَّهُمَّ أَنْتَ الواحِدُ بِلا شَرِيكٍ، وَالمَلِكُ بِلا تَمْلِيكٍ، لاتُضادُّ فِي حُكْمِكَ، وَلا تُنازَعُ فِي مُلْكِكَ.

ومن الجدول يتبيّن: ابتداء المقدّمات بخطاب الله تعالى خطابًا غائبًا، أو قل غير حاضر، ثم الخطاب المباشر. ويعرف هذا بالالتفات، وكان الشّريف الرضيّ (ت٤٠٦هـ) قد أبان منزلته، وجعله شاهداً على قيمة العربيّة بقوله: ((فتعرف به قدرتها على التّصرّف في أقطار الكلام والتفسّح في أعطان الخطاب، فتارة يكون مواجهة؛ لأنّه أبلغ في المخاطبة، وتارة يكنّى عن المخاطبين كما يكنّى عن الغائبين؛ لأنّ ذلك أشدّ تصرّفًا، وأغرب طريقة ومذهبًا))[٤٧]، وفيه ((خروج للتّدليل على حركة المعنى النامية في النّصّ))[٤٨]؛ وفائدة الالتفات بصورة عامّة أنّه ينبّه المقابل على أمر مهمّ، فـ((يجدد نشاطًا في النفس ويبعث على الإصغاء))[٤٩]، ولكن هذا إذا كان المخاطب من جنس البشر أمّا أن المخاطب هو الله سبحانه فيستبعد أنْ يكون هو التجديد لنشاط النفس (تنزّه عن ذلك)، وإنما فيه الرغبة على استعطاف الرب والتذلل إليه تعالى مع تجلٍّ وعروج نحو العبوديّة المطلقة.

وقد يكون السبب أنّ عظم الذات المقدسة وتخضّع العبد لله تعالى أخّر الحديث المباشر بصيغة الخطاب، وبدأ بالخطاب الذي هيئته تدلّ على الغيبة كي يكون تمهيداً، وليقرّر العبد حمد ربه مرة أخرى (لك الحمد).

وربّما يُلمح في تحويل الخطاب من غير المباشر إلى المباشر درسٌ في أنّ الحياة تقتضي الولوج إلى العالم الفعليّ، فيكون خطابه تعالى الصريح سعياً للمكاشفة على تصحيح الواقع.

٢ـ تغير نمط الأسلوب:

ويكون على مناحٍ، تتجلى بالآتي:

التّقديم والتّأخير:

إذا كان الحمد – سالفًا – في البداية أثبت الحمد لله، فإنّه في لاحقها حُصِر بالله تعالى، وهذا أيضا تحوّل من طبقة إلى أخرى، فبعد أنْ كان المبتدأ مقدمًا (الحمد لله)، تأخّر لاحقًا في (لك الحمد)، وهذا ترقّ في الأسلوب، فخصّص أنّ كلَّ الحمد لله. وكأنّ العملية جرت بإثبات الحمد له تعالى أولًا، ولما أن أقرّ العبد بذلك بصورة اعتيادية، فمن المحتمل أن يتصور أن يكون هناك من يستحق الحمد أيضًا، فجاء لاحق النص ليوثّق ذلك الحمد لله ويحصره به، وغاية ذا أنّ معرفة المحمود الحقيقيّ تقضي بسلامة الأفكار، والتحرّر من عالم الخنوع، من ذلة الدنيا وأصحابها، لأنّ ((الانشداد إلى الدنيا وزينتها والتعلّق بالحياة على هذه الأرض مهما كان شكلها، فإنّ هذا الانشداد والتعلّق يجمّد الإنسان في كثير من الأحيان، ويوقف مساهمته في عملية البناء الصالح؛ لأنّ المساهمة في كل بناء كبير تعني كثيرًا من ألوان الجهد والعطاء وأشكالًا من التضحية والأذى في سبيل الواجب وتحملًا شجاعًا للحرمان من أجل سعادة الجماعة البشريّة ورخائها))[٥٠].

زيادة مؤكد:

في الأدعية (الثلاثاء والخميس والجمعة والسبت) أعقب المقدمة، بالنداء المبالغ فيه (اللهم)...، ويرى بعض النحويين أنّ أصله (يا الله)، فأبدل من (يا) في أوله (الميمان) في آخره، وخص بدعاء الله، وقيل تقديره (يا الله أمّنا بخير)، فكثرت في الكلام فاختلطت[٥١]، ويبدو أنّ أصله الله. أمّا الميم التي في آخره فجاءت مبالغة في نداء الله مثلما ان (بلعوم) من بلع، وأضيف المقطع (وم) الذي بعضه ميم للمبالغة في البلع[٥٢]، ولّما كانت الميم مشدّدة في (اللهمّ) ضوعف من تلك المبالغة، فأكثر التضعيف (التشديد) للمبالغة[٥٣]...، وهذا النّداء البليغ والتوسل الشديد جاء حمدا لله في السرّاء والضرّاء، وجرى الترقي بإثبات الحمد على الصورة.

طبقة كلامية فيها توكيد وتقرير بالنداء

طبقة كلام اعتياديّة

ولاحظنا كيف ترقى النص بذكر النداء[٥٤]، ففيه انسجام مع غرض التوسّل، ورغبة في الحديث، ومثل هذه الرغبة تدعو لتربية العبد على الروح الإيمانيّة الحقيقيّة، والتخلّص من

شوائب الشّيطان ليكون الدّعاء وسيلة عُظمى في تهذيب السّلوك..

وفي دعاء يوم الأربعاء: ((لَكَ الحَمْدُ أَنْ بَعَثْتَني مِنْ مَرْقَدي وَلَوْ شِئْتَ جَعَلْتَهُ سَرْمَدًا، حَمْدًا دائمًا لا يَنْقَطِعُ أَبَدًا وَلا يُحْصِي لَهُ الخَلائِقُ عَدَدًا))، ثم ((اللهم لك الحمد..)).. وإذا رجعنا إلى الجدول الخاص بالتحول من الغائب إلى الحاضر الانتقالة ((لَكَ الحَمْدُ أَنْ بَعَثْتَني)) كان تصاعداً للمقدمة، ويأتي بعدها ((اللهم لك الحمد..)) بمنزلة تصاعد التصاعد، بسبب زيادة النداء.

إن كثرة مناداة البارئ تُدلي بافتقار العبد التامّ اتّجاهه تعالى، وهذا يجنّبه الكثير من المساوئ، ويقوده للتحرّر من الرّذائل.

إنّه من باب الإلحاح على الله تعالى في الدعاء، ولا شكّ أنّ الإلحاح في الدّعاء أمرٌ مرغوب فيه، وعن الإمام الباقر عليه السلام: ((والله لا يلحّ عبدٌ مؤمنٌ على الله (عزّ وجلّ) في حاجته إلا قضاها له))[٥٥]، وفي الإلحاح تربية النّفس على النّهج السّليم، وفي الوقت الحالي الذي تتكالب فيه منافذ الشّيطان، وتُباع الرّذيلة في كل حدب وصوب يأتي الدعاء الإماميّ وسيلة لتقويم الزّيغ، وقطع الطريق أمام تيارات الشيطان.

إنّ التفاعل مع أدعيتهم عليهم السلام يكون بمثابة الجُرعة التي تقي من أوبئة التهالك. إنّها السّعادة الحقيقيّة.

الإجمال والتفصيل[٥٦]:

إنّ الابتداء بالمجمل ثم تعقيبه بالتّفصيل درس مؤثّر لرسوخ القناعة، فمن دعاء يوم الاثنين: ((وَأَسأَلُكَ فِي مَظالِمِ عِبادِكَ عِنْدِي فَأَيُّما عَبْدٍ مِنْ عَبِيدِكَ أَو أَمَةٍ مِنْ إِمائِكَ...)) نجد الإجمال والتفصيل قام على الصورة:

وَأسأَلُكَ فِي مَظالِمِ عِبادِكَ عِنْدِي	جملة فعليّة مجملة يتهيّأ فيها العبد للغضّ عمّا بدر من مظالم اتجاه العباد
فَأَيُّما عَبْدٍ مِنْ عَبِيدِكَ أَو أَمَةٍ مِنْ إِمائِكَ...	جملة اسميّة مفصلة ومع أنّ فيها إعادة للجملة السالفة في المعنى إلا أنّها فصّلت من أجل شمول العباد سواء أكان الأمر مع العبد أم الأمَة، وسبق الكلام بـ (من) التوكيديّة التي تفيد الاستغراق(٥٧)، إنّ ذا مبالغة في إثبات العموم.

وبالتأمل أيضًا يظهر أنّ التفصيل وإنْ أفادَ في تصاعد الدلالة إلا أنّه أدلى ببيان قيمة كلّ أعضاء المجتمع بما فيهم المرأة إنّها همسة في أذن المجتمع قاطبة أنّ للمرأة حقًا لا يمكن تجاهله،

وأكثر القيود المفروضة والتقاليد المزعومة إن هي إلا كبيت العنكبوت في نظر الشّرع المحمديّ.

٣ـ البنية بين التحوّل والتغيير:

البنية الصرفيّة قد تكون مجردة، فتدلّ على معناها الأساسيّ، وقد يزاد عليها بما يتناغم وغرض النصّ، فمن ذا التصاعد في بنية الصلاح والنجاح من يوم الأحد في قوله: ((وَإِياكَ أَسْتَرْشِدُ لِما فِيهِ الصَّلاحُ وَالإِصْلاحُ، وَبِكَ أَسْتَعِينُ فِيما يَقْتَرِنُ بِهِ النَّجاحُ وَالانْجاحُ))، فالصّلاح الوارد أوّلًا يدلّ على تحقّق مطلق الصلاح لكن الإمام لا يريد هذا فقط، وإنّما يريد أيضًا أنْ يسعى العبد في إصلاح غيره، بل ويتوسّل الله على أنْ يرشده لذلك، إنّ الإسلام يريد من العبد أنْ يكون قيمة عليا في مجتمعه، فلا يكتفي بالصّلاة والصّوم... بل لا بد منْ أنْ يكون مؤثّرًا في المُجتمع، ويسعى للمساعدة دومًا، إن ذا امتثال لقوله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ (المائدة /٢).

ولم ينته الأمر بتحقيق الإصلاح حتى عطف عليه ما يؤكد السعي الحثيث لإنجاح الآخرين، انّ النجاح هو فاكهة السعادة، فلا يعمل الإنسان شيئًا إلا وهو يتأمله ويتمنّاه، وهو الغاية المرجوّة ومن ثم تأخّر عن الصّلاح؛ لأنّه وسيلة إليه. وفي دعاء يوم الاثنين: ((اللّهُمَّ اجْعَلْ أَوَّلَ يَوْمِي هذا صَلاحًا وَأَوْسَطَهُ فَلاحًا وَآخِرَهُ نَجاحًا))، وانّما كان طلب النّجاح أولًا ثم الإنجاح ثانيًا؛ لأنّ الناس تأخذ من الفعّال لا القوّال، فهو أدْعى للتّأثير، فلا يمكن الاستجابة لناهٍ عن منكر، وهو يفعله، ويدفعنا هذا إلى القول بصورة عامة: إنّ المجتمع لا يمكن أنْ يصلح، وينجح ما لم يكن الدعاة فيه والمسؤلون وأهل الشأن على درجة عالية من الصّلاح والنّجاح، وقد قال إمام البلاغة: ((مَنْ نَصَبَ نَفْسَهُ لِلنَّاسِ إِمَامًا فَعَلَيْهِ أَنْ يَبْدَأَ بِتَعْلِيمِ نَفْسِهِ قَبْلَ تَعْلِيمِ غَيْرِهِ، وَلْيَكُنْ تَأْدِيبُهُ بِسِيرَتِهِ قَبْلَ تَأْدِيبِهِ بِلِسَانِهِ، وَمُعَلِّمُ نَفْسِهِ وَمُؤَدِّبُهَا أَحَقُّ بِالْاجْلَالِ مِنْ مُعَلِّمِ النَّاسِ وَمُؤَدِّبِهِمْ))[٥٨].

ونجد التحول في البنية أيضًا بالنّصّ في دعاء يوم الاثنين: ((وَأَسأَلُكَ فِي مَظالِمِ عِبادِكَ عِنْدِي، فَأَيُّما عَبْدٍ مِنْ عَبِيدِكَ أَو أَمَةٍ مِنْ إِمائِكَ...، فَأَسْأَلُكَ يا مَنْ يَمْلِكُ الحاجاتِ وَهِيَ مُسْتَجِيبَةٌ لِمَشِيَّتِهِ وَمُسْرِعَةٌ إِلى إِرادَتِهِ أَنْ تُصَلِّيَ عَلى مُحَمَّدٍ وَآلِ مُحَمَّدٍ وَأَنْ تُرْضِيَهُ عَنِّي بِما شِئْتَ..))، وهنا تحوّلت البنية من (عباد) إلى (عبيد)، ويذهب العالم سبيط النيلي إلى ((أنّ لفظ (عبيد) استعمل لتسمية الأشرار، وأنّ لفظ (عباد) استعمل لتسمية الأخيار من

الخلق))[٥٩]، واستدلّ بالنصوص القرآنيّة، وممّا استدلّ به قوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ (فصلت /٤٦)، ولكن قوله هذا مردود لأمرين:

الأول: ليس هناك دلالة واضحة على حصر العبيد بالأشرار في الآية، بل شملت لفظة (العبيد) ما سبقها: الصالح والمسيء.

الثاني: النّص الوارد في الدّعاء يبعد أنْ تكون لفظة (العبيد) خاصّة بالأشرار، وكذا في غيره من الأدعية ففي دعاء الندبة مثلًا: ((اللّهُمَّ ونَحنُ عَبيدُكَ التّائقُونَ إلى وَلِيِّك المُذكِّرِ بِكَ وَبنَبِيِّكَ خَلَقْتَهُ لَنا عِصْمَةً ومَلاذًا وأَقَمْتَهُ لَنا قِواماً ومَعاذًا وجَعَلْتَهُ للمُؤْمِنينَ مِنّا إماماً، فَبَلِّغْهُ مِنّا تَحيَّةً وسَلاماً))، فأين الأشرار في هذا النص الدعائيّ؟

يمكن القول: إنّ العبيد تزيد على العباد[٦٠] في أنّها أكثر خضوعًا لله تعالى، فيعظم إيذاء العبد كلما زادت عبوديته اتجاهه تعالى. وترقّي الداعي لأنْ يكون قد تجنّب إيذاء العبد وإنْ ذلّ، ليدلّ على ضرورة التّعايش، وطلب الصّلاح بين جميع الطّبقات، فلا فضل لأحد على آخر. والعبد يترقّى بخلق نبيل إلى خلق أنبل، وهو التّحلي بأخلاق الله، وقد ذكر لفظ العبيد في القرآن الكريم كلها كانت في مجال نفي الظلم عنه تعالى للعبيد بالأقوال الكريمة: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ (آل عمران /١٨٢) ، (الأنفال: ٥١)، ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ (الحج / ١٠)، ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ (فصلت/٤٦) ﴿مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ (ق/٢٩)، فيكون العبد من جرّاء الدعاء الإمامي بادئًا بتجنب ظلم العباد وصولا إلى صفة ربانية، وهي تجنب ظلم العبيد التي ركز القرآن على نسبتها للربّ.

وقد يكون لفظ العباد ليس كالعبيد في كون العباد خاصًا[٦١] والعبيد عامًا يشمل الصالح والطالح، ويمكن التأكد من ذلك بملاحظة آية (فصلت/٤٦)، والمعلوم أن الترقي يكون من الأقل إلى الأكثر، وورد في ﴿وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا﴾ (النساء/٤٣)، فهذا ((من باب الترقي من الأقل إلى الأكثر، لأن حالة المرض أقل من حالة السفر، وحالة السفر أقل من حالة قضاء الحاجة،

وحالة قضاء الحاجة أقل من حالة لمس المرأة. ألا ترى أن حالة الصحة غالبًا أكثر من حال المرض، وكذا في سائر البواقي))[٦٢]، فيكون النص الدعائي بدأ بالاستعاذة من إيذاء العباد وترقي بالاستجارة من إيذاء العبيد كلًا على كثرتهم، إن ذا من باب التلطف بالطلب.

ويحتمل التحوّل في البنيّة قوله عليه السلام من دعاء يوم الاثنين: ((فَلَكَ الحَمْدُ مُتَواتِرًا مُتَّسِقًا ومُتَواليًا مُسْتَوْسِقًا))، وهو هنا رغبة مؤكدة على التحميد شكرًا للمحسن الحقيقيّ، فالتحميد هو الدعاء الجامع[٦٣]، وروي عن محمد بن مروان أنّه قال: ((قلت لأبي عبدالله عليه السلام: أي الأعمال أحبّ إلى الله (عزّ وجلّ)؟ فقال: أن تحمده))[٦٤]، وجاء أولًا (مُتَّسِقًا) ثم (مُسْتَوْسِقًا)، والمتسق من (اتسق) بمعنى (اكتمل)، فهو حمد مكتمل، وفي القرآن الكريم: ﴿وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ﴾ (الانشقاق /١٨)، أي اجتمع وامتلأ وصارَ بدراً[٦٥]، أما (استوسق) فيأتي بمعنى مقارب، كونه يفيد الاجتماع، ومنه ((اسْتَوْسَقَت الإبل: اجتمعت وانضمت))[٦٦]، ولانضمام بعضها لبعض فهو اكتمال أيضًا، ولعلّ في تغيير البنية الدّالّة على معنى متقارب دلالة قويّة على توثيق المعنى بما لا يُثير الملل بإعطاء المعنى بأكثر من مبنى لتقرير مضمونه وتأكيد فكرة تمامه للباري بصورة ايقاعيّة مؤنسة للسّمع بنغم جميل يدعو للتأمّل في استيجاب الحمد له تعالى. وسنجد فيما بعد أنّ التّكرار وإنْ كان ظاهره في المعنى نفسه إلا أنّه يزيد في قوة الدّلالة كونه وثّق من سابقه وقرّره، و ربّما كان في (استوسق) معنى زائد على (اتّسق) بسبب كثرة حروفها، وتأخير الأكثر حروفًا من باب التّصاعد الدّلاليّ. وإذا تدرجنا بالعمليّة يمكن لحاظ ذلك الترقي:

فَلَكَ الحَمْدُ مُتَواتِرًا	مُتَّسِقًا	ومُتَواليًا	مستوسقًا
متتابع	مجتمعا مكتملا	((والتوالي أن يحصل شيئان فصاعدا حصولا ليس بينهما ما ليس منهما، ويستعار ذلك للقرب من حيث المكان))[٦٧]	الاجتماع الكامل والمبالغ فيه للحمد السالف.

وبعد أن أخذنا تحولات البنية وأثرها في التصاعد النصي وصلنا إلى تغيير البنية، ففي قوله: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِّي مِن دُونِ اللَّهِ وَلَكِن كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ (آل عمران /٧٩).. ((والكتاب: هنا اسم جنس، والحكم: قيل بمعنى الحكمة، ومنه: ((إن من الشعر لحكمًا)). وقيل: ((الحكم هنا السنة، يعنون لمقابلته الكتاب، والظاهر أن الحكم هنا القضاء والفصل بين

الناس، وهذا من باب الترقي، بدأ أولًا بالكتاب وهو العلم، ثم ترقى إلى التمكين وهو الفصل بين الناس ثم ترقى إلى الرتبة العليا وهي النبوّة وهي مجمع الخير، ثم يقول للناس))[٦٨]، فهي مدلولات ذات دلالات متصاعدة في القوة.

ونجد مثلها في دعاء يوم الثلاثاء: ((اللّهُمَّ اجْعَلْني مِنْ جُنْدِكَ فَإِنَّ جُنْدَكَ هُمُ الغالِبُونَ، وَاجْعَلْني مِنْ حِزْبِكَ فَإِنَّ حِزْبَكَ هُمُ المُفْلِحُونَ، وَاجْعَلْني مِنْ أَوْلِيائِكَ فَإِنَّ أَوْلِيائَكَ لاخَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاهُمْ يَحْزَنُون)).

فالانتماء إلى جند الله شرف عظيم، والانطواء تحت حزبه شرف أعظم، والانتماء إلى أوليائه غاية الشرف والعظمة ، قال تعالى: ﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (الأنفال / ٣٤).

التّكرار المحض:

التّكرار المحض يكون بإعادة جزء من النص مفرداً أو جملة، وظاهره يدل على أنّه لا يوجد تصاعد في الدلالة، وإنّما بقاء الخطّ الدّلاليّ على مستواه، ولكن إذا كان بهذه الصّورة سيكون التّكرار وعدمه سواءً، ويمكن القول بذلك في حدود اللغة الدارجة أمّا اللغة الأدبيّة فتقتضي المفاجأة والنّمو الأدبيّ، ومن هنا ذهبت الباحثة جوليا كريستيفيا الى أنّ التّكرار يفيد زيادة في الدّلالة بقولها: ((إذا كان تكرار وحدة دلاليّة في اللُّغة الشعريّة الدّارجة لا يُغيِّر من عَلاقَة الرِّسالة، بل يُنتَج بالأحرى إثرَ حشوٍ وخرقٍ نحويٍّ وخيم،...، فإنّ الأمر يختلف في اللُّغة الشعريّة؛ إذ هنا تكون الوحدات غير قابلة للتّكرار أو بصيغة أخرى لا تظل الوحدة المكرّرة هي هي، وهو ما يجعلنا نتبنّى كونها تصبح أخرى بمجرد ما تخضع للتّكرار.. إنّنا نقرأ في المقطع المكرّر المقطع نفسه وشيئًا آخر))[٦٩].

وللتّدليل على ذا يلحظ قوله عليه السلام من دعاء يوم الاثنين: ((وَأَسأَلُكَ في مَظالِمِ عِبادِكَ عِنْدي فَأَيُّما عَبْدٍ مِنْ عَبيدِكَ أَو أَمَةٍ مِنْ إِمائِكَ كانَتْ لَهُ قِبَلي مَظْلَمَةٌ ظَلَمْتُها إِيّاهُ في نَفْسِه، أَوْ في عِرْضِه أَوْ في مالِه أَوْ في أَهْلِه وَوَلَدِه، أَوْ غيبَةٌ اغْتَبْتُهُ بِها، أَوْ تَحامَلٌ عَلَيْه بِمَيْلٍ أَوْ هَوىً أَوْ أَنَفَةٍ أَوْ حَمِيَّةٍ أَوْ رِياءٍ أَوْ عَصَبِيَّةٍ غائِبًا كانَ أَوْ شاهِدًا أَوْ حَيًّا كانَ أَوْ مَيِّتًا، فَقَصُرَتْ يَدي وَضاقَ وُسْعي عَنْ رَدِّها إِلَيْه والتَحَلُّلِ مِنْهُ، فَأَسأَلُكَ يا مَنْ يَمْلِكُ الحاجاتِ وَهِيَ مُسْتَجيبَةٌ

لِمَشِيَّتِهِ وَمُسْرِعَةٌ إِلى إِرادَتِهِ أَنْ تُصَلِّيَ عَلى مُحَمَّدٍ وَآلِ مُحَمَّدٍ وَأَنْ تُرْضِيَهُ عَنِّي بِما شِئْتَ)).

وهنا تكرّرت لفظة (أسألك)، ولا يمكن القول هي نفسها، وإنّما أفادت الإلحاح في طلب السؤال، وفيها حفاظ على نظم الكلام، فقد ذكّرت بما بدأ به الكلام، وجعلته متمّمًا بعضه لبعضه الآخر، وقرّرت السؤال وجعلته سؤالًا مبالغًا فيه بسبب الخوف من وقوع المظالم اتجاه العباد. إن هذا الإلحاح في السؤال يتاغم ونفسية الداعي أن يفرغ ما في جوفه لطلب الأمان، ((وكما يجب على البليغ في مظانّ الإجمال والإيجاز أن يجمل ويوجز؛ فكذلك الواجب عليه في موارد التفصيل والإشباع أن يفصل ويشبع))[٧٠].

ومن دعاء يوم الثلاثاء: ((بِبِسْمِ اللهِ خَيْرِ الاَسَّماء، بِسْمِ اللهِ رَبِّ الاَرْضِ وَالسَّماء اسْتَدْفِعُ كُلَّ مَكْرُوهٍ أَوَّلُهُ سَخَطُهُ، وَأَسْتَجْلِبُ كُلَّ مَحْبُوبٍ أَوَّلُهُ رِضاهُ)) وهنا تجديد دلاليّ بما يفيد التّصاعد في بناء النّص، فتكرّرت البسملة للتقرير على ابتداء العبد يكون من الله في كلّ شيء، ووصف لفظ الجلالة أوّلًا بخير الأسماء، ثم بـ (رَبِّ الأَرْضِ وَالسَّماء)، وهذا النّمو النّصّيّ وسيلة لدفع السّائل أنْ يطلب حاجته بطمأنينة: (اسْتَدْفِعُ كُلَّ مَكْرُوهٍ أَوَّلُهُ سَخَطُهُ، وَأَسْتَجْلِبُ كُلَّ مَحْبُوبٍ أَوَّلُهُ رِضاهُ)، وفيه ضرورة الابتداء ببسمه تعالى في طلب الحوائج أولًا وآخر، فهو التّمام في تحققها.

الخاتمة:

لقد كان التصاعد في الأدعيّة بمنزلة التوجه نحو السماء لبناء الحياة الصحيحة على الأرض، وهو بهذا يدرك الواقعية الحقة، ليس كالأوروبي الذي قيّد نظره بالأرض فقط، إذ ((يختلف الإنسان الأوروبيّ عن الإنسان الشرقيّ اختلافًا كبيرًا، فالإنسان الأوروبي بطبيعته ينظر إلى الأرض دائمًا لا إلى السّماء وحتى المسيحيّة - بوصفها الدين الذي آمن به هذا الإنسان مئات السنين - لم تستطع أن تتغلب على النزعة الأرضيّة في الإنسان الأوروبيّ، بل بدلًا عن أن ترفع نظره إلى السماء استطاع هو أن يستنزل إله المسيحيّة من السماء إلى الأرض ويجسده في كائن أرضيّ))[٧١]. إن أرضية المسلم قادرة وصالحة وبإمكانها النماء، وفي أدعية أهل البيت عليهم السلام ما يمثل الماء لبذورها، وهو ما حاول البحث الكشف عنه، وليصل إلى مجموعة من النتائج، أبرزها:

١- تراث أهل البيت منجم للدّراسات، ولا يمكن أنْ تظهر دراسة حديثة أو مستجدة إلّا

وفيه ما يؤيدها أو يفندها.

٢- إنّ كل لفظة أو جملة وضعت في مكان لا يعوضها غيرها، وفي ذلك ما يبعث الروح في فكر المتلقّي، ويتناغم مع نفسيته بالذي يجعله فاعلًا ومؤثرًا في مجتمعه.

٣- لا يمكن الحكم على معنى جملة إلا بالنظر إلى ما يكتنفها من سابق و لاحق، ومن ثَمّ يرى البحث اعتماد الجملة مجزوءة عن النّصّ في الدرس المعاصر قد يوقع بضياع الكثير من فضل العربيّة.

٤- إنّ التّصاعد يكون على مستوى المضمون الواحد، فإذا تغيّر لم يعد ثمة داع للتّصاعد.

٥- ذكر التّصاعد عند المفسرين بمصطلح الترقّي، وجاء عند المحدثين بإشارات استند عليها البحث بعدّ التّصاعد ظاهرة ذات مكانة.

٦- التّصاعد الدلاليّ أسلوب حجاجيّ متين يؤهِّل صاحبه لاستيفاء حجته في الإقناع.

٧- ينبغي اتخاذ منهج التدرج في السلوك اليوميّ والحياتيّ وصولًا إلى الغاية، والابتداء من المرقاة الثانية قد يعود على صاحبه بالسقوط.

٨- إن أدعية الإمام كانت موسوعة حياتيّة تعكس الحياة الصحيحة وتشخص الواقع، وهي أكثر من طلب خير أو تجنب شرّ، وإنْ كان هذا هو الأساس، بل هي وسيلة سريّة لإرشاد النّاس.

٩- أبرز وسائل التّصاعد كانت في التّقديم والتّأخير والنّداء والالتفات من الغياب إلى الحضور وتحويل البنية الصرفيّة وتغييرها، ويمكن أنْ يجتمع أكثر من وسيلة في المقطع النّصّي الواحد.

وختامًا ربنا اجعل هذا العمل خطوة في سبيل الوصول إلى طريق الذين ﴿وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

هوامش البحث

(١) سورة النمل: ٥٩.
(٢) سورة يونس: ١٠
(٣) من حياة الأئمة الأطهار: ١٢٨، وينظر: الأئمة الاثنا عشر (دراسة تحليلية): ١٤٤.
(٤) بحث حول الدعاء، السيد السبزواريّ: ٥٤.
(٥) بحث حول الدعاء: ١٢.
(٦) الأساليب التربويّ عند أئمة البيت عليهم السلام: ١٧٤.
(٧) مقدمة الصحيفة السجادية: ١٠.
(٨) أصول الكافي، باب أن الدعاء شفاء من كل داء: ٢٥٨/٢.
(٩) البلاغة الحديثة في ضوء المنهج الإسلاميّ: ١٥٠.
(١٠) الإسلام يقود الحياة: ١٩١.
(١١) بحث حول الدعاء: ٦٧.
(١٢)النّصّ والخطاب والإجراء: ٩٤.
(١٣)المصدر نفسه: ١٠٢.
(١٤) نهج البلاغة: ٣٥٤.
(١٥)علم لغة النّصّ المفاهيم والاتجاهات: ١٢٦، علم لغة النّصّ المفاهيم والاتجاهات: ٣٦.
(١٦)نحو النّصّ ـ إطار نظري ودراسات تطبيقية ـ: ١٠٥.
(١٧) التصاعد القولي: هو محور هذا البحث أما الفعلي فيمكن ملاحظته فيما ذكره الزمخشريّ من نهج النبي نوح عليه السلام مع قومه، وقد ابتدأ ((بالأهون والترقي في الأشد فالأشد، فافتتح بالمناصحة في السر، فلما لم يقبلوا ثنى بالمجاهرة، فلما لم تؤثر ثلث بالجمع بين الإسرار والإعلان)) الكشّاف: ٦١٩/٤، وكذا النبي المصطفى بدأ بالدعوة السريّة ثم العلنيّة
(١٨) ينظر في مصادره وإسناده: قبسات من شرح دعاء الندبة: ١٠ ـ ١١.
(١٩) الحضور أبلغ من الغياب، ينظر: حقائق التأويل في متشابه التنزيل: ٣٥٧.
(٢٠) العين (صعد): ٩٨٨/٢.
(٢١) الخصائص: ٣٤٨/١.
(٢٢) دلائل الإعجاز: ٢٢٩، ويُنْظَر: المصدر نفسه: ٢٢٨، والمطول: ٤٣٦.
(٢٣) البحث العلمي يقتضي تقديم المصطلح التُّراثيّ؛ لأنه الأسبق (يُنْظَر: أصول تحليل الخطاب: ٢٠/١)، فكان ينبغي آختيار مصطلح التّرقّي لا التّصاعُد لكنّ البحث رأى في المصطلح المعاصر أكثر واقعيّة فهو يدلُّ على تزايد في الكمِّ الدّلاليّ من جهة التّوكيد والمُبالغة وبيان الحجّة بصورة متزايدة، ولا يعني أنْ يكون الكلام اللّاحق أرقى من السّابق مثلما يوحي به مصطلح (الترقي)، فلكلِّ جزءٍ نصّيٍّ مكانه الّذي يستحقُّه، وعلى هذا آختيرَ مُصطلحُ التّصاعُد لا التّرقّي.

(٢٤) الكشّاف: ٥١/١، ومثله عند السيد الطباطبائيّ في كتابه الميزان: ١٢١/١٤.
(٢٥)البرهان الكاشف عن إعجاز القرآن: ٢١٠.
(٢٦) يُنْظَر: البحر المحيط: ٢٧٨/٢، ٤٠٤/٢، ٥٢٨/٢، ١٤١/٣، ٢٦٠/٣، ٢٦٩/٣.
(٢٧) المصدر نفسه: ٥٢٥/٣، ويُنْظَر: الاتقان في علوم القرآن: ١٢٦/٢..
(٢٨)الأسلوبية الصوتية: ١٢٣، ويُنْظَر: لسانيّات النَّصّ، د. أحمد مداس: ٨١، ودراسات في علوم القرآن الكريم: ٤٥٤.
(٢٩) الأسلوبيّة الصوتيّة: ١٢٣.
(٣٠) يقَصْد بالعلامة ((أي إشارة دلاليّة مهما كان حجمها كلمة أو جملة أو نصًا... وما شكل ذلك لبيان حالة محددة))، النَّصّ والخطاب، شتيفان هابشايد: ٣٦.
(٣١) لسانيّات الخطاب: ٦٢.
(٣٢) نظريّة علم النَّصّ: ١٣٨، ومن تحليلاته بعد أن رأى تقدّم (خيّم) على (رسّخ): (((خيّم) أقل درجة من (رسّخ) حيث إن في الثانية مَعْنى الإقامة مع إرساء الدعائم أما الأولى، فتشير إلى مَعْنى الإقامة فقط)): ١٠٢.
(٣٣) يُنْظَر: نظريّة علم النَّصّ، بل رأى هنري فليش أنّ التَّصاعُد ـ في العربيّة ـ غالبًا ما يكون في بناء الكلمة الواحدة، فأكثر أبنيتها تميل للـ(إيقاع الصاعد)، وهو أنْ تبتدئ بمقطع قصير ثم طويل. يُنْظَر: العربيّة الفصحى: ٨٨ ـ ٨٩.
(٣٤) ينظر: البحر المحيط: ٣١٣/٧.
(٣٥) دلائل الإعجاز: ١٧٥.
(٣٦) ينظر معاني الأبنية: ١٠٧.
(٣٧) ينظر: دلائل الإعجاز: ١٣٣.
(٣٨) البحر المحيط: ٢٦٠/٣.
(٣٩) البحر المحيط: ٢٧٨/٢.
(٤٠) البحر المحيط: ١٤١/٣.
(٤١) الميزان: ١٢١/١٤.
(٤٢) سيكشف البحث عن ماهية التصاعد هنا في المبحث الثاني.
(٤٣) البحر المحيط: ٤٠٤/٢.
(٤٤) الميزان: ٣٣٦/٢.
(٤٥) لعلّ هذه الخاصيّة خاصّة بالأدعيّة، فهي تباين المناجيات؛ فلما فيها من مناجاة الرب بدأت بالخطاب المباشر.
(٤٦)أسرار التكرار في القرآن: ٤٦.
(٤٧)حقائق التأويل في متشابه التنزيل: ٣٥٧.

(٤٨)في تحليل النّصّ الشعريّ: ٨٩.

(٤٩) البرهان الكاشف عن إعجاز القرآن للزملكاني: ٣١٤ ـ وفي المطوّل: ٢٨٧ ((ليفيد تطرئة لنشاطه وإيقاضًا في إصغائه))..

(٥٠) الإسلام يقود الحياة: ١٦٩.

(٥١) ينظر معاني القرآن للفراء: ٢٠٣/١.

(٥٢) ينظر مقاييس اللغة: ١٦٤.

(٥٣) ينظر: الخصائص: ٣٧٠/٣، وحقائق التأويل في متشابه التنزيل: ٢٥٥.

(٥٤) وقد يعترض بعض علي بعَدِّ النداء من المؤكّدات، فحسب اطلاعي لم يسبق أنْ جعله أحدٌ من ضمنها، ولكن بالتأمل في الصحيفة السجّادية يظهر أن مناداة الرب كانت للتأكيد على استجابة الدعوة...، ونجد في القرآن الكريم استعمال النّداء في المواضع الصعبة ليدلل بذلك التوكيد على الامتثال للأوامر التالية لتركيب النّداء فمثلًا حين نادى نبي الله قومه، وطلب منهم ذبح بقرة معيّنة لم يُستعمل أسلوب النداء: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ (البقرة/٦٧)، لكن حين طلب منهم قتل بعضهم بعضًا، وهو أمر صعب عليهم جاء بالنداء: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ (البقرة/٥٤).

(٥٥) أصول الكافي، باب الإلحاح في الدعاء: ٢٦١/٢.

(٥٦) ينظر: البلاغة الحديثة في ضوء المنهج الإسلاميّ: ٦٤ ـ ٦٦.

(٥٧) ينظر: مغني اللبيب: ٤٢٥/٢.

(٥٨) نهج البلاغة: ٤٨٠.

(٥٩) النّظام القرآنيّ: ٦٤.

(٦٠) العبيد تستعمل في مواضع التذلل التام، والعباد تستعمل في التشريف فقد ((ورد في اغلب الآيات لفظ العباد للدلالة على عباده المكرمين المؤمنين ذوي المكانة الرفيعة الشريفة)) دلالات أبنية الجموع في القرآن الكريم: ١٢٢. وتستعمل في الذم ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَى بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا﴾ (الفرقان/٥٨)، وقد يكون هذا بسبب من الياء، فهي تدلّ على التّصغير والتّذليل، ففي موضوع التّصغير يظهر بوضوح كيف أنها علامة للتصغير، وقد تكون الياء التي يضيق فيها المخرج دالة على التقليل، وهذا جزء من الدلالة الصوتيّة، ((وقد درست هذه الظاهرة في كثير من لغات العالم، وتبين أنّ هناك سمات مشتركة حيث تدل بعض الأصوات على دلالات معينة في أغلب الأحوال فمثلا الصائت (ا) يدل على الصغر والحدة على حين أن الصائت (u) يدل على الضخامة أو الغلظ))، الأسلوبية الصوتية: ٢٤.

(٦١) ينظر: النظام القرآنيّ: ٦٥.

(٦٢) البحر المحيط: ٢٦٩/٣.

(٦٣) جاء في: أصول الكافي، باب التحميد والتمجيد: ٢٧٥/٢ ((عن المضل قلت لأبي عبد الله عليه السلام جُعلت فداك علمني دعاءً جامعًا، فقال لي: أحمد الله فإنّه لا يبقى أحدٌ يصلّي إلا دعا لك، يقول: سمع الله لمن حمده)).

(٦٤) أصول الكافي، باب التحميد والتمجيد: ٢٧٥/٢.

(٦٥)ينظر: المفردات، الراغب الأصبهانيّ: ٨٧١.

(٦٦) العين: ١٩١/٥.

(٦٧) المفردات: ٨٥٥.

(٦٨) البحر المحيط: ٥٢٨/٢.

(٦٩)علم النَّصّ، جوليا كريسطيفا: ٨٠ - ٨١.

(٧٠) الكشّاف: ١١٣/١.

(٧١) الإسلام يقود الحياة: ١٨٩.

قائمة المصادر والمراجع

١- الأئمة الاثنا عشر (دراسة تحليلية)، عادل الأديب، مركز الغدير للدراسات الإسلامية (د.ت).

٢- الأساليب التربوية عند أئمة أهل البيت عليهم السلام، السيد أبو هشام عبد الملك الموسوي، دار الزهراء، قم - إيران، ط١، ١٣٢٧هـ.

٣- الإسلام يقود الحياة، السيد محمد باقر الصدر، مكتبة الكلمة الطيبة، بغداد، ط١، ١٤٣٢هـ - ٢٠١٢م.

٤- الأسلوبيّة الصوتيّة، د. محمد صالح الضالع، دار غريب - القاهرة، ٢٠٠٢م.

٥- أصول الكافي، الشيخ محمد يعقوب الكلينيّ (ت٣٢٩هـ)، منشورات الفجر، بيروت - لبنان، ط١، ١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م.

٦- بحث حول الدعاء، السيد عبد الأعلى السبزواريّ، مطبعة كوثر، ط١، ١٤٢٥هـ.

٧- البحر المحيط، أبو حيان أثير الدين محمد بن يوسف الأندلسي (ت٧٤٥هـ)، دار الفكر، عمان، ١٩٧٨م.

٨- البرهان الكاشف عن إعجاز القرآن، كمال الدين عبد الواحد بن عبد الكريم الزملكانيّ (ت٦٥١هـ)، تح: د.خديجة الحديثيّ، ود. أحمد مطلوب، مطبعة العاني - بغداد، ط١، ١٣٩٤هـ - ١٩٧٤م.

٩- البلاغة الحديثة في ضوء المنهج الإسلاميّ، د. محمود البستانيّ، دار الفقه للطباعة والنشر، مطبعة سليمان زاده - قم، ط١، ١٤٢٤هـ.

١٠- دلائل الاعجاز: عبد القاهر الجرجاني (ت٤٧١هـ)، تح: محمد رشيد رضا ، دار المعرفة - بيروت، منشورات الأروميّة، قم ـ إيران، ١٣٩٨ ـ ١٩٧٨م.

١١- دلالات أبنية الجموع في القرآن الكريم، زينب علي الجميلي (رسالة ماجستير)، إشراف حسام سعيد النعيمي، كلية الآداب جامعة بغداد، ١٩٩٣م.

١٢- حقائق التأويل في متشابه التنزيل، السيد الشريف الرضيّ (ت٤٠٦هـ)، تح: محمد الرضا آل كاشف الغطاء، دار الأضواء، بيروت، ط١، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.

١٣- الصحيفة السجاديّة ويليها رسالة الحقوق، مؤسسة الحكمة للثقافة الاسلاميّة ، النجف الاشرف، ط١، ١٤٣٤هـ - ٢٠١٣م.

١٤- العربية الفصحى ـ نحو بناء لغويّ جديد ـ، هنري فليش، تر: د. عبد الصبور شاهين، دار المشرق - بيروت، ١٩٨٣م.

١٥- علم لغة النَّصّ المفاهيم والاتجاهات، د. سعيد حسن بحيري، الشركة المصريّة - لونجمان، ط١، ١٩٩٧م.

١٦- علم النَّصّ، جوليا كريستيفا، تر: فريد الزاهي، دار توبقال، الدار البيضاء - المغرب، ط٢، ١٩٩٧م.

١٧- العين، الخليل بن أحمد الفراهيديّ، تح: مهدي المخزوميّ، د. إبراهيم السامرّائيّ، منشورات مؤسسة الأعلميّ للمطبوعات، بيروت ـ لبنان، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.

١٨- في تحليل النَّصّ الشعريّ، عادل ضرغام، منشورات الاختلاف ـ الجزائر، الدار العربية للعلوم (ناشرون) ـ بيروت، ط١، ١٤٠٣هـ - ٢٠٠٩م.

١٩- قبسات من شرح دعاء الندبة، أحد منتسبي العتبة العلويّة المقدسة، مطبعة الرائد ـ النجف، ١٤٣١هـ.

٢٠- الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، أبو القاسم بن عمر الزمخشري (ت٥٣٨هـ)، تح: عبد الرزاق المهدي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١ ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م.

٢١- الخصائص، أبو الفتح عثمان بن جني (ت٣٩٢هـ)، تح: محمد علي النجار، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ط٤، ١٩٩٠هـ

٢٢- لسانيات الخطاب، د. نعمان بوقرة، دار الكتب العلميّة، بيروت ـ لبنان، ط١، ٢٠١٢م.

٢٣- المطول (شرح تلخيص مفتاح العلوم)، العلامة سعد الدين مسعود بن عمر التفتازاني (ت٧٩٢هـ)، تح: د. عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٢٤هـ.

٢٤- معاني القرآن، يحيى بن زياد الفراء (ت٢٠٧هـ)، تح: محمد علي النجار، وأحمد يوسف نجاتي، القاهرة، ١٩٨٠م.

٢٥- معاني الأبنية في العربية، د. فاضل صالح السامرائي، ساعدت جامعة بغداد على نشره، ط١، ١٩٨١م.

٢٦- مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، ابن هشام الأنصاري، تح: د. مازن المبارك، ومحمد علي حمد الله، مؤسسة الصادق، طهران، ط١، ١٣٧٦هـ.
٢٧- مفردات ألفاظ القرآن، العلامة الراغب الحسين بن محمد الإصفهاني (ت٥٠٢هـ)، تح: صفوان عدنان، دار القلم، دمشق، ط٤، ١٤٢٥هـ.
٢٨- المقاييس في اللغة، أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريّا (ت٣٩٥هـ)، تح: شهاب الدين أبو عمرو، دار الفكر، بيروت ـ لبنان، (د.ت).
٢٩- من حياة الأئمة الأطهار، الشيخ مرتضى المطهريّ، دار الجوادين، ط١، ١٤٣٢ ـ ٢٠١١م.
٣٠- الميزان في تفسير القرآن، السيد محمد حسين الطباطبائيّ، مؤسسة الأعلميّ للمطبوعات، بيروت - لبنان، ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م.
٣١- نحو النص - إطار نظري ودراسات تطبيقية ـ عثمان أبو زنيد -، عالم الكتب الحديث، ٢٠٠٩م.
٣٢- النظام القرآنيّ (مقدمة في المنهج اللفظيّ)، عالم سبيط النيلي، دار المحجة البيضاء، بيروت - لبنان، ط١، ١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م.
٣٣- النص والخطاب والإجراء، روبرت دي بوجراند، ترجمة: د. تمام حسان، عالم الكتب، ط١، ١٤١٨هـ - ١٩٩٨م.
٣٤- نظريّة علم النَّصّ (رؤية منهجية في بناء النصّ النثريّ)، د. حسام أحمد الفرج، مكتبة الأنجلو المصريّة، ط ١، ١٤٢٨هـ ـ ٢٠٠٧م.
٣٥- نهج البلاغة، تح: د. صبحي الصالح، مركز البحوث الإسلامية، قم، ١٣٩٥هـ.